السلطان مراد الرابع

فترة الحكم: ١٦٢٣– ١٦٤٠

السلطان العثماني السابع عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: فاتح بغداد، والغازي، وصاحب قِران (أي الحاكم الناجح دائما)، وشاه مراد، ومرادي

اسم الأب: أحمد الأول

اسم الأم: ماهبَيكر (كوسَمْ) سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول، ٢٧ يوليو/تموز سنة ١٦١٢

العمر عند اعتلاء العرش: ١١ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس، ٩ فبراير/شباط سنة ١٦٤٠

مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي بإسطنبول، ودُفن بالقرب من السلطان أحمد الأول في ضريح أحمد الأول عند مسجد السلطان أحمد

أبناؤه: سليمان، ومحمد، وعلاء الدين، وأحمد، ومحمود

بناته: كايا إسمهان سلطان، ورقية سلطان، وحفيظة سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الرابع، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

عزلت الانكشارية السلطان عثمان الثاني وأعادت مصطفى الأول للعرش في عام ١٦٢٢. لكن الصدر الأعظم وكبار رجال الدولة أجبروا مصطفى الأول على التنازل عن العرش مرة أخرى بسبب قصوره العقلي ولفشله أيضا في إنهاء الفوضى الإدارية التي عمّت خلال حكمه الذي دام لمدة عام ونصف. وأُعلن مراد الرابع، وريثُ العرش البالغُ من العمر أحد عشر عاما، سلطانا جديدا في عام ١٦٣٢.

أُلقِي خطاب اعتلاء العرش عند ضريح السلطان أيوب، وكان عزيز محمود هُدايي هو من قلد مراد الرابع سيفه السلطاني. وتولى كل من السلطانة الوالدة "ماهبيكر كوسَم" والصدر الأعظم "علي كَمَنْكَشْ باشا" الإدارة المركزية لحداثة سن السلطان الجديد. وكان السلطان صغير السن جدا أيضا بحيث لا يمكنه الرد على العنف المتفشي في إسطنبول من قبل الجيش عقابا لرجال الدولة الذين ناصروا حركات تمرد الانكشارية لمصلحتهم الخاصة. ولم يكن قادرا أيضا على إخماد الثورات التي نشبت في بعض الأقاليم. تنكر مراد الرابع وجاب شوارع إسطنبول بحثا عن أسباب تدهور الأمور، واستعد لتغيير سيادته الظاهرة إلى سيادة حقيقية فعلية.

قضى مراد الرابع سنواته التسع الأولى على العرش في اكتساب الخبرة في إدارة الدولة العثمانية. وفي مايو/أيار عام ١٦٣٢ قام بمحاولة شجاعة لمقاومة المتمردين. وعندما أصبح سلطانا مؤهلا انتقد نساء القصر والأغوات (كبار موظفي القصر) وهاجمهم بشدة، وحرمهم في النهاية من إمكاناتهم التي كانوا يستغلونها للتلاعب بشؤون الدولة.

قام محمد أباظة باشا والي أرضروم العام بتمرد مضاد انتقاما لمقتل السلطان عثمان الثاني، فاستولى على أرضروم والمناطق المجاورة لها بشرق الأناضول في عام ١٦٢٤، وقتل أفراد الانكشارية الموجودين بالمنطقة. لكن قوات مراد الرابع هزمت محمدا أباظة باشا بالقرب من قيصري في وسط الأناضول، وتراجع الباشا إلى

أرضروم لكنه عاد ليتمرد مرة أخرى في وقت لاحق. فقبض عليه الصدر الأعظم خسرو باشا وجاء به إلى إسطنبول. وبعد أن جاء إلى حضرة السلطان عفا عنه، وعينه واليا عاما على البوسنة.

لكن التمرد الأشد اندلع في إسطنبول في ٧ فبراير/شباط عام ١٦٣٢. حيث كان خسرو باشا، الصدر الأعظم الذي حل محل أحمد حافظ باشا، يظلم ويبطش بالناس في الأناضول خلال حملاته على همدان وبغداد، ثم فشل في الحصار. ولذلك، استُدعي حافظ أحمد باشا ليكون الصدر الأعظم مرة أخرى بدلا من خسرو باشا. وقام طوبال رجب باشا الذي رغب في الترقي لمنصب ولاية أحد الأقاليم، بتحريض الجنود المؤيدين لخسرو باشا واندلع تمرد كبير.

تجمع الجنود في ميدان السلطان أحمد، ومشوا إلى القصر لثلاثة أيام متعاقبة، وطالبوا بإعدام الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا، وكبير القضاة زكريا زاد يحيى أفندي، وقائد قوات الانكشارية حسن خليفة، بالإضافة إلى سبعة عشر رجلا آخرين من الرجال الأكثر ولاء للسلطان. وعندما رفض السلطان الرابع طلبهم بشدة، كسر قائد المتمردين باب السلام، وبوابة القصر الثانية، واندفع نحو فناء قاعة الديوان (ميدان الديوان)، وطلب المثول أمام السلطان. وبعد تهديدات من هؤلاء وجد السلطان مراد الرابع نفسه مجبرا على التفكير بجدية في نصيحة طُوبال رجب باشا الذي حذره من خطر خلعه عن العرش، فرضخ لمطالب المتمردين.

عرف الصدر الأعظم الوفي حافظ أحمد باشا مصيره، فمثل أمام السلطان قائلا: "سيدي السلطان! إن حافظ المتواضع أحد رعاياك [يعني نفسه] مستعد للتضحية بنفسه دائما من أجلك، غير أنني لا أريد أن أموت بناء على أوامرك المبجلة، بل أرغب في أن أموت بأيدي الغوغاء، لأن هذا يعني أنني سأموت شهيدا". ثم تقدم وهاجم المتمردين واستطاع أن يقضي على أحد أفراد الغوغاء القساة لكنه استشهد في النهاية. وبعد أن شهد السلطان تكشُّف سلسلة الأحداث المأساوية، انسحب إلى غرفته وهو يزمجر ويتوعد بالانتقام. ومنذ ذلك الحين تغيرت نبرته وأصبحت أكثر عدوانية تجاه المتمردين. وتجمع المتمردون لاحقا مرة أخرى في ميدان السلطان أحمد للاجتماع بالسلطان طالبوا فيه برؤية الأمراء. ورغم علمه بالمؤامرة التي كانت تجري وراء ظهره فإنه لم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يضحي بولديه الأمير بايزيد والأمير سليمان في طريق عودته من حملة يريفان.

أصبح ظهور المتمردين بشكل متلاحق هو النمط المتكرر بإسطنبول، بفعل سياسة التصعيد من جانب الصدر الأعظم رجب باشا. وفي محاولة من السلطان لقمع ثورات المتمردين وترسيخ سلطته، قام السلطان أولا بالتخلص من رجال الدولة الذين تبين فسادهم، وأعدم رجب باشا الذي

لعب دورا عميقا في عدة ثورات رئيسية بإسطنبول والأناضول. وأثار إعدام الباشا رعب أفراد وحدات فرسان السباهي الجامحين وأنصارهم، لكن الأمن استتب في إسطنبول والأناضول في نهاية الأمر.

كان الصفويون قد استعادوا بغداد خلال تلك الفترة. ورغم أن خسرو باشا ذهب في سلسلة من الحملات إلى همدان وبغداد فإن انتصارات قواته التي تعززت بالجنود الموجودين بالمنطقة منذ أيام أباظة محمد باشا لم تكن كافية لإعادة فتح بغداد بعد حصارها لفترة ليست بالقصيرة.

شن مراد الرابع حملتين ضد فارس، وخلال الحملة الأولى التي بدأت يوم ٢٨ مايو/أيار سنة ١٦٣٥، تحرك السلطان مراد الرابع بجيشه عبر الطريق الذي يمر من إزميت وأسكِيشَهير وقونية وقيصري وسيواس، وفي النهاية اخترق الجيش العثماني الضخم - الذي كان يتألف من أكثر من ٢٠٠ ألف جندي- منطقة أرضروم-كارس، ووصل إلى بوابات روان (يريفان اليوم). وقام الجيش بحصار قلعة يريفان وفتحها. وأرسل السلطان "أميرجوني أوغلو" - آخر قائد مسؤول عن الحصن - إلى حلب حيث عينه واليا عاما عليها. واعتنق أميرجوني أوغلو المذهب السني لاحقا، وسمى نفسه يوسف، لكن الناس ظلوا ينادون يوسف باشا باسم أميرجوني أوغلو طوال حياته حتى عندما استُدعي لإسطنبول ليترقى لمنصب الصدر الأعظم. والحقيقة أن البستان الرائع الذي أُعطي له على البوسفور مازال أحد الأماكن المفضلة للتنزه في إسطنبول، ويسمى أميرجان باسمه. وتخليدا لذكرى نصر يريفان شيد جناحٌ في الفناء الرابع بقصر "طوب قابي" وسمي جناح ريفان.

أعاد الصفويون الاستيلاء على يريفان بعد عودة السلطان مراد الرابع منها، وأرسلوا مبعوثا لطلب الهدنة. لكن السلطان مراد لم يسمح للمبعوث بالدخول إليه، وأرسل رسالة للمبعوث جاء فيها أنه "سوف يرد على الرسالة [طلب السلام] في بغداد"، وغادر المبعوث.

سار الجيش العثماني بقيادة مراد الرابع نفسه في حملة على بغداد. وفي نفس الأثناء قَتل ابنه الأمير قاسم نتيجة للشائعات المزعجة التي انتشرت قبيل الحملة. وقاد السلطان جيشا عثمانيا عظيما يذكّر بجيوش الفترة المبكرة. ومع وجود السلطان كجندي في صفوف المحاربين ضربت القوات العثمانية حصارا على حصن بغداد انتهى بإعادة فتح بغداد وضمها مرة أخرى إلى السيادة العثمانية عام ١٦٣٨.

وبعد فتح بغداد تجول السلطان مراد الرابع حول حصن بغداد وزار ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة، مؤسس المذهب الحنفي في الإسلام. وأمر بعد ذلك بتجديد ضريحي أبي حنيفة وعبد القادر الكيلاني، وهما من أبرز الشخصيات في التاريخ الإسلامي. وكان السلطان يستطيع التقدم إلى أبعد من ذلك بكثير في بلاد فارس، لكنه لم يفعل، وعاد إلى إسطنبول بسبب صحته المتدهورة في الأساس. وأدت رحلة العودة الطويلة والشاقة إلى إسطنبول بإصابته بقروح في رجليه. فكان على الصدر الأعظم أن يقود محادثات السلام، وبناء على ذلك، وُقّعت معاهدة "قصر شيرين" (المعروفة باسم معاهدة زُهاب أيضا) في ١٧ مايو/أيار سنة ١٦٣٩ بالقرب من مدينة "قصر شيرين". وكانت تلك المعاهدة إشارة إلى النهاية الرسمية للحروب الدائرة بين الدولة

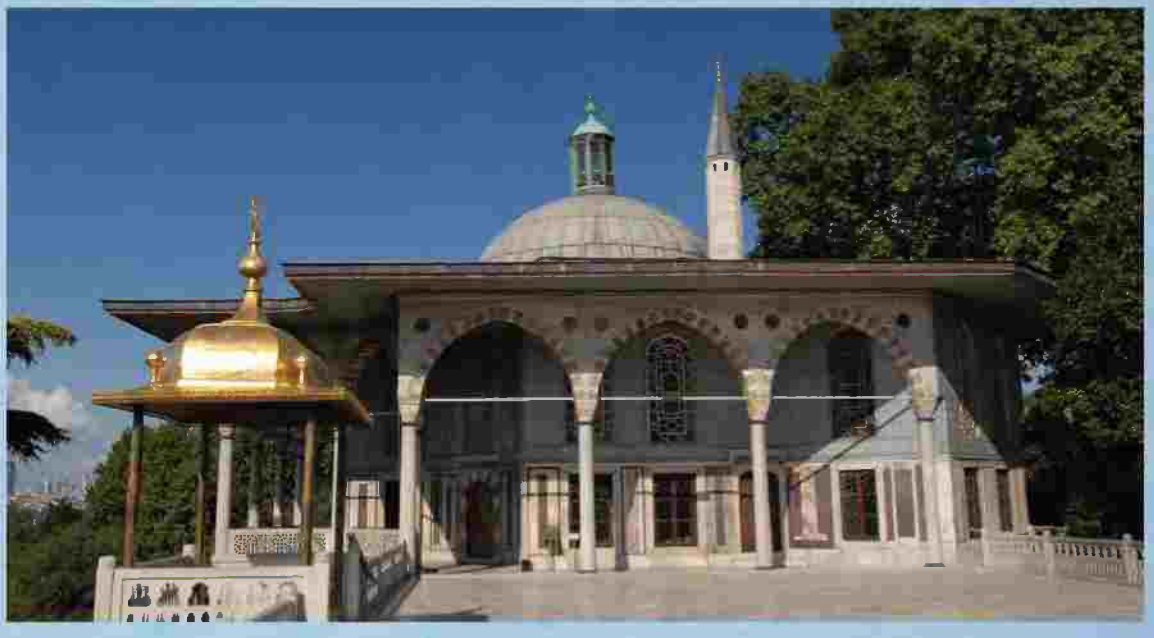

جناح بغداد كما يمكن مشاهدته من الشرفة المرصوفة بالرخام. ويتميز الجناح الذي أنشأه السلطان مراد الرابع بإطلالة رائعة على البوسفور.

العثمانية وفارس الصفوية، فجلبت السلام للمنطقة لأعوام طويلة متتالية، بل إنها وضعت الأساس للمرجعيات المستقبلية في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

خلال الحروب مع فارس، أهملت مملكة بولندا دفع الجزية السنوية المتفق عليها، وزيادة على ذلك قامت بتحريض القوزاق الروس على مهاجمة الأراضي العثمانية. وبالتالي أمر السلطان مراد الرابع بتجهيز حملة ضد مملكة بولندا. وبعد فترة وجيزة طلبت مملكة بولندا السلام ووعدت بدفع الجزية السنوية لكل من الدولة العثمانية وخانية القرم.

في إحدى الحملات قام علي بشين أوغلو أميرالُ الأسطول العثماني في الجزائر وتونس بإرساء أسطول سفنه عند ميناء فلورا، القريب من ميناء باري الإيطالي. فاستغل البنادقة هذا الأمر وأرسلوا أسطولا ضخما لسد ميناء فلورا. وفي النهاية قاموا بمصادرة السفن العثمانية وحملها بعيدا في عام ١٦٣٨. أصيب السلطان مراد الرابع بالإحباط عند سماعه لتلك الأخبار، وأمر بإنهاء العلاقات التجارية مع البندقية وإغلاق محطة الجمارك الموجودة بميناء مدينة سبليت على السواحل الشرقية للبحر الأدرياتيكي. وأمام تلك العواقب الوخيمة هرع البنادقة لطلب السلام، ووُقعت معاهدة جديدة استأنفت العمل بالشروط التجارية وأجبرت البنادقة على دفع تعويضات، وكان ذلك في ١٦ يوليو/تموز عام ١٦٣٩.

جناح ريفان من الداخل، قصر "طوب قابي"

كافح السلطان مراد الرابع بإصرار كبير لإعادة الدولة العثمانية إلى مجدها، حيث تمكّن إلى حد كبير من إنهاء الفساد في الهيكل الإداري، واتخذ تدابير جذرية لقمع الثورات الجلالية. وأعدّ السلطان مراد الرابع مجموعة واسعة من الإصلاحات، وفقا لتوصيات تقدم بها المؤرخ قوشي بك، الذي قدم بيانا موجزا حول الموقف الحالي للدولة العثمانية العظمى بناء على طلب السلطان.

تدهورت صحة مراد الرابع بشدة في رحلة عودته من حملته العسكرية على بغداد، واشتد مرض السلطان على نحو خطير بعد يومين من الاحتفال بقدوم شهر رمضان المعظم، وتُوفّي بعد صلاة العشاء يوم الخميس ٨ فبراير/شباط سنة ١٦٤٠. ودفن أمام عدد كبير من الحضور في ضريح والده السلطان أحمد الأول بالقرب من مسجد السلطان أحمد. وسجل المؤرخ "نعيمة" الذي عاصر تلك الفترة في سجلاته التاريخية رواية تقول إن جناحا جديدا كان يُشيّد بقصر "طوب قابي" باسم جناح بغداد لتخليد ذكرى إعادة فتح بغداد، وعندما كانت الأسوار تغطى بلوحات الخط الديواني الجلي،[٢٥] كان الخطاط يكتب في لحظة ما قولَه تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧) فتزامنت وفاة السلطان مراد الرابع مع اللحظة التي كان الخطاط يكتب فيها اسم إبراهيم.

وقد خلف السلطانُ مراد الرابع أخاه الأصغر إبراهيم على العرش.

كان السلطان مراد الرابع ضخم البنية، حيث اشتهر بقوته

(٢٥) الخط "الديواني" هو أحد أنواع الخطوط العربية يكتب بحروف متصلة، وكان يستخدم في الوثائق العثمانية، وفي الديوان العثماني بشكل أساسي، بالإضافة إلى المراسيم السلطانية وصكوك الأوقاف. اشتهر الخط الديواني خلال عهد السلطان سليمان القانوني وبلغ قمته في نهاية القرن التاسع عشر. يمتاز الخط الديواني برحرفته ووضوحه وتعقيد الخط داخل الحرف، والتحاور اللصيق لحروف الكلمة الواحدة. والخط "الديواني الجلي" نوع من الخط الديواني يتسم بكثرة علامات التشكيل والزخارف.

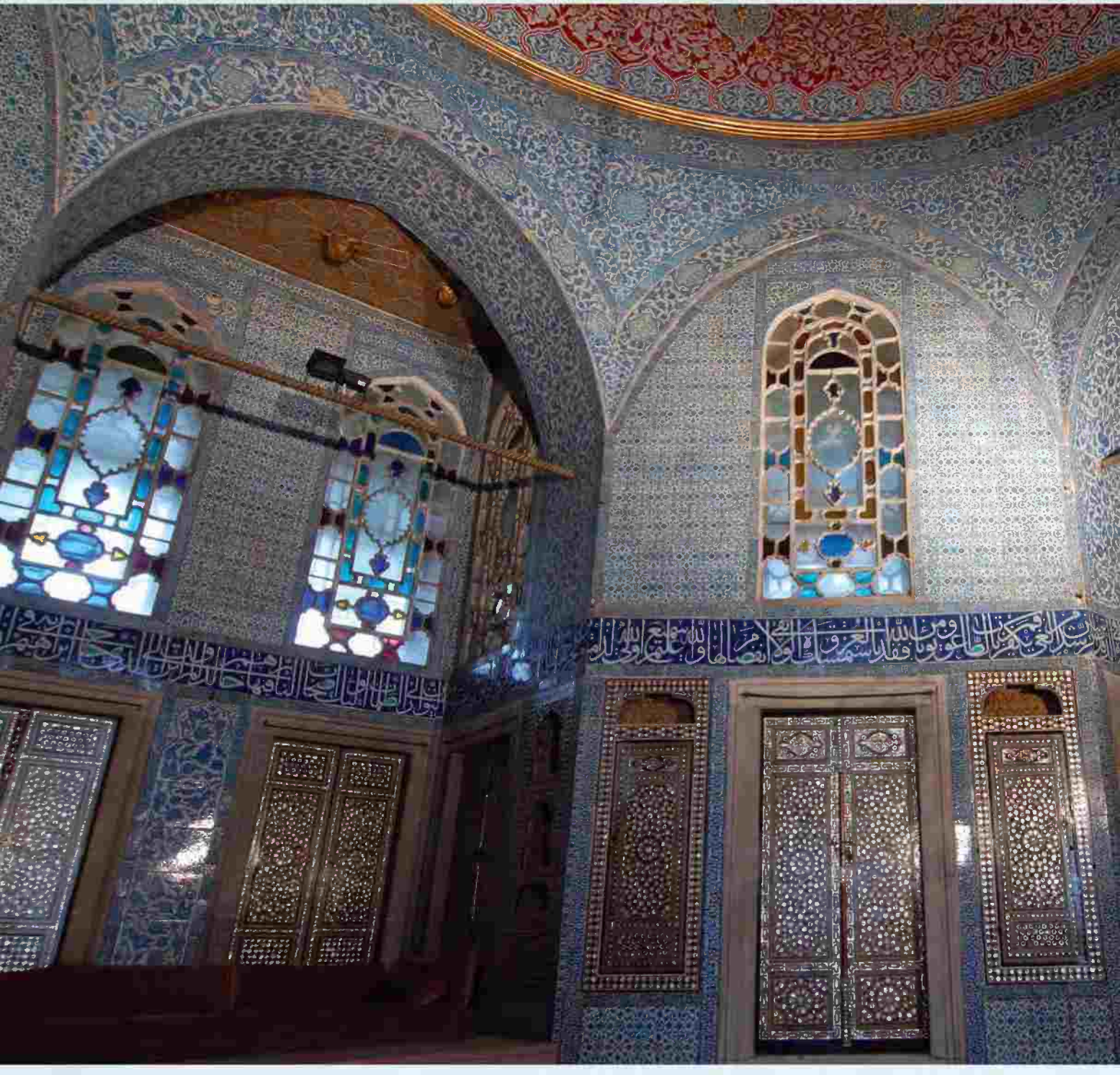

جناح بغداد من الداخل ويظهر مزينا بزخارف جميلة وتفاصيل دقيقة.

جناح بغداد، مشهد من حديقة التيوليب

الجسدية وقدرة تحمله المشاق.. ولمّا كان مولعا بالرياضة فقد شيد "العرش الحجري" في حدائق قصر "طوب قابي"، وهو عرش مصنوع من الرخام الصلب، حيث كان يجلس ويشاهد مباريات طلاب مدرسة أندرون الداخلية بقصر "طوب قابي". وكان يشارك في الألعاب الرياضية أيضا من ذلك المكان من حين لآخر. وتسجل اللوحة الموجودة خلف العرش الرخامي أن السلطان مراد الرابع نجح في رمي هراوة من البلوط لمسافة ٢٦٣ قدم (٨٠ مترا) تقريبا، وهو يجري بفرسه بسرعة قصوى في شهر رمضان من عام ١٦٣٦، وهو ما يدل على قوته البدنية المذهلة. ومن بين الأمثلة الأخرى على قوته أنه رفع صولجانا وزنه ٥٦٥ رطلا (٢٥٦ كيلو)، وأنه صارع بعض المصارعين المحترفين في ذلك الوقت. وروي أيضا أنه رفع في إحدى المرات شخصا سمينا يسمى "سِلَاحْدَارْ موسى باشا" (وكان رجلا محترما ومسؤول مدرسة أندرون) وحمله ودار به حول الحجرة السلطانية في القصر عدة مرات.

كان السلطان فارسا متميزا وراميا موهوبا يتقن استعمال أنواعا كثيرة من البنادق. وكان مرتبطا بأحصنته بشكل كبير، ويهتم اهتماما خاصا بالإسطبلات السلطانية. وقد ربيت في تلك الإسطبلات خيول أصيلة سميت بأسماء "مجنون الجبل" و"الأغا المرقط" و"الطيار". وطبقا للعادات التركية القديمة جرت تلك الأحصنة المنتقاة من قصر "طوب قابي" إلى مسجد السلطان أحمد وسرْجها مثبت بالمقلوب.

وتروي المصادر أيضا أن السلطان مراد

عرش السلطان مراد الرابع المصنوع من الرخام والموجود بحديقة القصر؛ حيث كان السلطان محبا للرياضة ويشاهد المنافسات الرياضية من هذا المكان.

الرابع رمى سهما قبيل وفاته فاخترق إحدى البوابات الحديدية بقصر "طوب قابي". ورُوي أيضا أنه ثقب درعا مصنوعا من جلدٍ وحيد القرن كان قد أرسله له شاه جهان حاكم الهند المغولية أثناء إقامته في الموصل على ضفاف نهر دجلة قبل حملته على بغداد. وكان يقال إن الدرع مضاد للسهام والرصاص، لكن المصادر تسجل أن السلطان خرق ذلك الدرع فأحدث ثقبين واضحين فيه بقوس وسهم أمام عيني المبعوث المغولي. ومما يتوافق مع تلك النادرة ما قيل عن مدى سهام السلطان وكيف أنها كانت تصل إلى مسافة أبعد من رصاص طلقات البندقية وأنه "لم يكن هناك مادة يعجز رمحه عن اختراقها". فقد كان يتمتع بموهبة مؤكدة في الرماية بالسهام والرماح، حيث كان يستطيع مثلا إطلاق السهام من القصر القديم (الذي يشغل مكانه الآن مبنى رئيس جامعة إسطنبول) إلى أسفل مئذنة مسجد بايزيد بميدان بايزيد، وأيضا من حصن حلب إلى مكان قريب من منطقة سراجْخَانه بحلب. وبالإضافة إلى الأمور المذكورة فإنه كان أثبت براعته في العزف على الكمان أيضا في مناسبات مختلفة.

كان السلطان مراد الرابع سلطانا غير عادي، ويتمتع بشخصية غير تقليدية. ففي حقبة من الجمود استطاع السلطان التعامل مع شؤون الدولة باجتهاد، وحاول التحقق من الأحداث التي تجري خارج القصر وفهمها من خلال زياراته المحلية متنكرا. ونجح إلى حد ما في إنقاذ الدولة من الفوضى التي كانت تعوقها. وتذكر مصادر غربية أنه أنشأ مكتب استخبارات محليا.

لوحة بفن المنمنمات لفرقة المختار في زيها العثماني الرسمي. وكانت فرقة المختار أقدم فرقة موسيقى عسكرية في العالم.

كان مراد الرابع يعرف اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى التركية، وكان يكتب القصائد باسم "مرادي"، وألّف أغاني الأناشيد العسكرية لفرقة الجيش العثماني التي كانت تسمى "مَهْتَر"، أقدم فرق الأناشيد العسكرية في العالم. ومن بين الأغاني الإسلامية التي ألفها الأنشودة الشهيرة التي تقول: "استيقظي يا عيني، استيقظي من الغفلة". كما كتب لوحات خطية عثمانية بخط التعليق (الخط الفارسي)، الذي يمتاز بالرؤوس القصيرة بدون خطوط رقيقة وجرات القلم الأفقية الطويلة. وكان السلطان مسلما ملتزما يحترم العلماء وكبار رجال الدين. وظهر خلال عهده الكثير من العلماء والمؤرخين والشعراء والخطاطين والموسيقيين العثمانيين، ومن بينهم "أوليا جلبي" و"كاتب جلبي" ونفعي و"شيخ الإسلام يحيى" وويسي و"قُوجي بك" و"عزمي زادة".

هطلت أمطار شديدة على مكة في أبريل/نيسان عام ١٦٣٩ فأغرقت المسجد الحرام، وارتفع السيل بمقدار قامتين وأحدث ضررا كبيرا بالمسجد. وما إن وصلت أنباء السيل السلطانَ حتى اجتمع بشيخ الإسلام وتسلم فتوى حول كيفية إجراء الإصلاحات، ثم عين السلطانُ القاضي العثماني محمد أفندي والمعماري الشهير رضوان آغا لإجراء الإصلاحات. وفي النهاية قام فريق من العمال المهرة تحت إشرافهما بإصلاح الأضرار التي أصابت الكعبةَ من جراء السيل، وأجروا إصلاحات شاملة بحيث فحصوا البنية الأساسية وقاموا بتحصين أساسات الكعبة. وكذلك فقد تمت الإصلاحات بأسلوب فريد حيث تم إحلال وتجديد الأجزاء والحجارة التي وقعت أو وفقدت وظيفتها بإحلال أجزاء أخرى محلها أحضرت من نفس المصدر الأولى.

ورغم أن فترة حكم السلطان مراد الرابع امتدت لأكثر من ستة عشر عاما، فإن حكمه الفعلي استمر لثمانية أعوام فقط؛ لأن والدته هي التي حكمت خلال السنوات الأولى من حكم السلطان الصغير الذي يفتقد الخبرة. وكانت شخصية السلطان مراد الرابع تشبه شخصية أحد أسلافه وهو السلطان سليم الأول، لكن مصيره كسلطان كان على العكس منه؛ حيث اعتلى السلطان مراد الرابع العرش وهو في الحادية عشرة، كما حُرم من رجال الدولة ذوي المواهب الاستثنائية. ولو كانت الظروف قد اختلفت، لكان هذا السلطان قد غيّر من مسار الدولة العثمانية على نحو مختلف تماما.

ورغم أن السلطان لم يسيّر أية حملة إلى أوروبا فإن مجرد وجوده كان يخيف الأوروبيين بشدة. وشعر الملوك الأوروبيون بفرح وسرور كبيرين لمجرد سماعهم برحيله. وخلف أخاه إبراهيم على العرش.

Ukraine
Donets
Dnieper
Don
Russia
Volga
Bender
Yedisan
Crimean Khanate
Kuban
Akkerman
Astrakhan
ARAL SEA
Sevastopol
BLACK SEA
Caucasia
Dagestan
CASPIAN SEA
Sinop
Istanbul
Samsun
Georgia
Kars
Shirvan
Trabzon
İznik
Ankara
Bursa
Otlukbeli
Erzurum
Yerevan
Erzincan
Azerbaijan
Van
Serav
Tabriz
Konya
Adana
Diyarbakır
Antakya
Marj Dabik
Rhodes
Mosul
Tehran
Aleppo
Hamedan
Larakia
Syria
Tigris
Qasr-e-Shirin
Cyprus (1570)
Beirut
Euphrates
Safavid Persia
Baghdad
Damascus
Isfahan
Jaffa
Dumyat
Jerusalem
Alexandria
Rida'ieh
Arabia
Basra
Cairo
Suez
Shiraz
Sinai
Aqaba
PERSIAN GULF
Hijaz
RED SEA
Egypt (1517)
Al-Qatif
Medina
SCALE
Mecca
0
125
250
375
500 miles

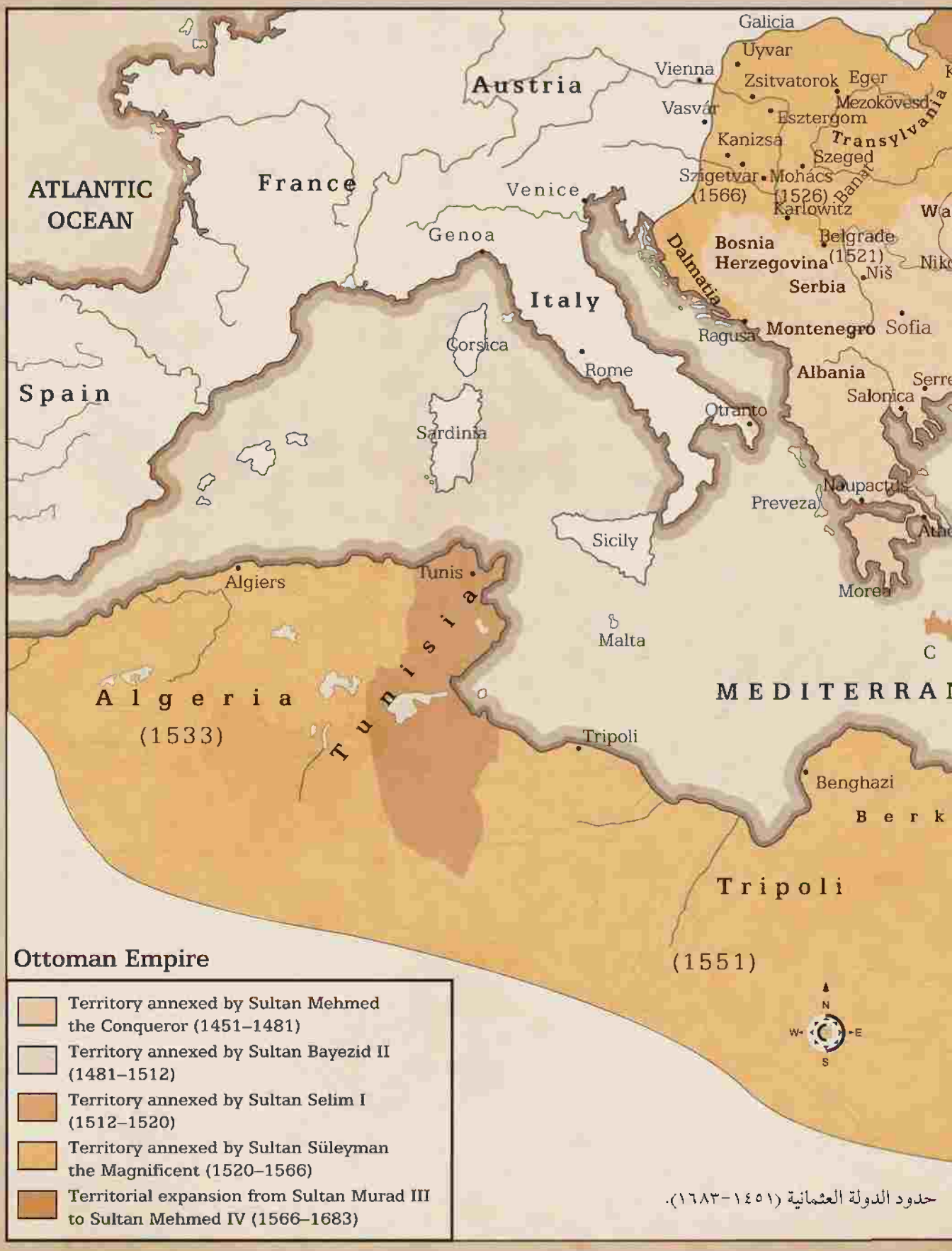

حدود الدولة العثمانية (١٤٥١-١٦٨٣).